لغة الخطاب الشعري

تتنوع لغة الخطاب الشعري وفقًا لمضمونه الذي يدور حوله ، وتشهد كتب الأدب العربي ، وما تعج به من نصوص بذلك ، يضاف إلى ذلك وجدان الشاعر وما تجيش به نفسه ، و أنت تستطيع أن تلمس ذلك عندما تتناول نصًا من النصوص الشعرية ، ستجد لغة الخطاب الشعري تتنوع :

(١) بين الحدة والقوة :

كما في قصيدة محمود درويش :

(أ)

سجل أنا عربي
ورقم بطاقتي خمسون ألف
وأطفالي ثمانية
وتاسعهم سيأتي بعد صيف
فهل تغضب ؟

(ب)

سجل
أنا عربي
وأعمل مع رفاق الكدح في المحجر
وأطفالي ثمانية
أسل لهم رغيف الخبز
والأثواب والدفتر
من الصخر
ولا أتوسل الصدقات من بابك

ولا أصغر
أما بلاط أعتابك
فهل تغضب ؟ ؟
سجل

(جـ)

أنا عربي
ولون الشعر . . فحمي
ولون العين . . بنيّ
وميزاتي :
على رأسي عقال فوق كوفية
وكفي صلبة كالصخر
تخمش من يلامسها

(د)

سجل
أنا عربي
سلبت كروم أجدادي وأرضًا كنت أفلحها
أنا وجميع أولادي
ولم تترك لنا ولكل أحفادي
سوى هذي الصخور . .
فهل ستأخذها ؟ ؟
إذن

سجل . . برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكره الناس ولا أسطو على أحد
ولكنى . . إذا ما جعت
آكل لحم مغتصبي
حذار حذار من جوعي
ومن غضبي

انظر إلى ما تحمله الأبيات ، وما يتضمنه الخطاب الشعري من قوة تتمثل في تلك البداية الآمرة (سجّل) متلوّة بضمير المتكلم (أنا) وما في ذلك من قوة واعتزاز ، ويزيد الخطاب الشعري عرامة وقوة تكرار الضمير (أنا) إذ جعله مفتتحًا لكل مقطع من مقاطع القصيدة .

كما أكسب الشاعر خطابه الشعري حدة من خلال :

١. الصورة التي رسمها لأسرته كثيرة العدد ، ومعاناة رب الأسرة في جلب القوت لهم ، إذ ينحت الصخر حتى يوفر لهم الخبز والطعام .
٢. إبراز عزة نفسه وإبائه ، ورفضه الضيم ، وأنه لا يستجدى ولا يطلب المساعدة من أحد (ولا أتوسل الصدقات من بابك) ، (ولا أصغر أمام بلاط أعتابك) .
٣. تذكير الغاصب المحتل بفعلته ، وأنه اغتصب الأرض ، ووضع يده على كل شيء (سلبت كرم أجدادي)
(وأرضا كنت أفلحها)
(أنا وجميع أولادي)

٤. إلقاء الضوء على طبع العربي ، وصفاته ، فهو إنسان طيب ، لا يحب الأذي ويحب الناس جميعًا ، ولا يأخذ حق غيره

أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد

٥. تحذير المحتل من الغضب العربي ، وأن الإنسان العربي إذا ما أهين أو اعتدي عليه فإنه يدمر كل شيء ويأتي على ما حوله.

ولكنى . . إذا ما جعت
آكل لحم مغتصبي
حذار حذار من جوعي
ومن غضبي .

(٢) **وبين اللين والرقة :**

مثل قصيدة العباس بن الأحنف التي يقول فيها:

أزين نساء العالمين أجيبي ... دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ما أقيم حروفه ... لشدة إعوالي وطول نحيبي
أخط و أمحوما خططت بعبرة ... تسح على القرطاس سح غروب
أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتني ... لطول شجوني بعدكم وشحوبي
وأنت من الدنيا نصيبي فإن أمت ... فليتك من حور الجنان نصيبي
فلا ضحك الواشون يا فوز بعدكم ... ولا حمدت عين جرت بسكوب
وإني لأستهدى الرياح سلامكم ... إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام إليكم ... فإن هي يومًا بلغت فأجيبي
أرى البين يشكوه المحبون كلهم ... فيارب قرب دار كل حبيب

أقول وداري بـــالعراق ودارهـــا حجازية فـــي حـــرة وســـهوب
سقى الله منزلاً بين العقيق وواقم إلى كل أطم بالحجـــاز ولـــوب
أزوار بيـــت الله مـــروا بيثـــرب لحاجة متبـــول الفـــؤاد كئيـــب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا على جلـــب للحادثـــات جليـــب

انظر إلى لغة الخطاب ، وما تحمل من رقة ولين واستعطاف ، نلمسها في ألفاظ الشاعر الهامسة ، والخطاب اللين المنبعث من الشاعر على استحياء إلى محبوبته يبرز فيه ما يلاقيه من تعب في بعدها عنه ، وصور لها حاله ، وما آل إليه من ضعف :

أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتني لطول شجوني بعدكم وشـــحوب

وقد استمد خطاب الشاعر لينه ورقته من عدة أمور :

١. تصوير حاله وضعفه وسقمه ومالحقه من عنت في بعدها عنه ، فهو لا يكف عن البكاء ، ودموعه لا تنقطع ، تسيل على القرطاس لتمحو ما كتبه :

أخط و أمحو ما خططت بعبـــرة تسح على القرطاس سح غروب

٢. إبراز مكانة فوز في قلبه ، وأنها نصيبه من هذه الدنيا ، ويدعو الله أن يجعلها من حور الجنان لتكون من نصيبه في جنة الخلد :

و أنت من الدنيا نصيبي فإن أمت فليتك من حور الجنان نـــصيبي

٣. مخاطبة الريح واستعطافها لتنقل السلام إلى محبوبته :

وإني لأستهدي الرياح ســـلامكم إذا أقبلت من نحـــوكم بهبـــوب
وأســـالها حمـــل الـــسلام إلـــيكم فإن هي يومًـــا بلغـــت فـــأجيبي

٤. الدعاء إلى الله أن يقرب دار المحبوب :

أرى البين يشكوه المحبون كلهم فيارب قرب دار كل حبيب

٥. مناشدة زوار بيت الله أن يبلغوا السلام لمحبوبته :

أزوار بيت الله مروا بيثرب لحاجة متبول الفؤاد كئيب

٦. ألفاظ الشاعر الهامسة و أساليب النداء التي يستعطف بها محبُوبته ، ويستعطف بها حجاج بيت الله :

- أزين نساء العالمين أجيبي دعاء مشوق بالعراق غريب

وقوله:أيا فوز لو أبصرتني ما عرفتني لطول شجوني بعدكم وشحوبي

وقوله : أزوار بيت الله مروا بيثرب لحاجة متبول الفؤاد كئيب

(٢) وبين التعالي والتفاخر :

يتمثل ذلك جليًا في قول المتنبي :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي و أسمعت كلماتي من به صممُ

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسف والرمح والقرطاس والقلم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وجاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فرّاسة وفم

إذا رأيت ينوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجواد ظهره حرم

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم

صحبت في البيداء الوحش منفردًا حتى تعجب منى القور والأكم

الخطاب الشعري هنا تبرز فيه لغة التعالي والتفاخر والاعتزاز بالنفس وليس بخاف ما كان يتمتع به المتنبي شاعر العربية – من مكانة عالية ، فقد كان الرأس بين شعراء عصره ، وكان المقرب والمقدم عند سيف الدولة ، والأثير إلى نفسه ، وحق له أن يتيه بنفسه لما كان يملك من موهبة القول ، وسحر البيان ، والشاعرية المتدفقة .

وتأمل الألفاظ التي تتكون منها لغة الخطاب الشعري ، وما تحمل من لهجة الافتخار والاعتزاز بالنفس ، والتي تبدو ملموسة في استخدام الضمير (أنا) ، واستخدام ياء المتكلم مع الفعل والاسم في قوله : أدبي ، كلماتي تعرفني ، مهجتي وتبرز نغمة التعالي والتفاخر في أمور ضمنها الشاعر خطابه الشعري :

١- المبالغة – المقبوله – التي جعل فيها الأعمى يبصر أدب المتنبي وبيانه ويسمعه الأصم :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

وهو فارس تعرفه الخيل والبيداء والسيف والرمح ، وهو أديب يعرفه القرطاس والقلم :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسف والرمح والقرطاس والقلم

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم

٢- إبراز عظمته في القول ، وأن ما يبدع من شعر هو مجال حوار وخصومة بين الشعراء والنقاد ، كما في قوله :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

٣- ولم يمنعه الخطاب الشعري من إيراد الحكمة ليؤكد اعتزازه بخبرته في الحياة ، انطلاقًا من أن الحكمة لا تأتي إلاَّ من مجرب ملم بالحياة وطبائع الناس ، فلأتي بالفائدة التي تنفع الإنسان أي إنسان قائلاً له: لا تنخدع بمعسول القول ولا الابتسام الظاهر في بعض الوجوه فقد يكون وراءهما شر محدق ، يقول :

إذا رأيت ينوب الليث بارزة فلا تظنن أنَّ الليث يبتسم

فتعداد صفات الشجاعة والفروسية وامتلاك ناصية الأدب والحكمة كلها خدم للخطاب الشعري الذي بدا واضحًا فيه التعالي والتفاخر.

(٤) وبين التحذير والتخويف :

والذي نلحظه جليًا في قول (لقيط بن يعمر الإيادي) محذرًا قومه :

مالي أراكم نيامًا في بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
في كل يوم يسنون الحراب لكم لا يهجعون إذا ماغا فل هجعا
فاشفوا غليلي برأي منكم حسن يصبح فؤادي له ريان قد نقعا
أبلغ إيادا وخلل في سراتهم أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
صونوا جيادكم واجلوا سيوفكم وجددوا للقسيّ النبل والشرعا
يالهف نفسي إن كانت أموركم شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعا
أشروا تلادكم في حرز أنفسكم وحرز نسوتكم لا تهلكوا هلعا
أذكوا العيون وراء السرح واحترسوا حتى ترى الخيل من تعدائها رجعا
لا تلهكم إبل ليست لكم إبل إن العدو بعظم منكم قرعا
هيهات لا مال من زرع ولا إبل يرجى لغابركم إن أنفكم جدعا

لا تثمـــروا المـــال للأعـــداء إنهـــم إن يظفـــروا يحتـــووكم والـــتلاد معـــا
يا قوم إن لكـــم مـــن عـــز أو لكـــم إرثا قـــد أشـــفقت أن يـــودى فينقطعـــا
قوموا قيامًا علـــى أمـــشاط أرجلكـــم ثم افزعوا قد ينال الأمـــن مـــن فزعـــا
وقلـــــدوا أمـــــركم لله دركـــــم رحب الذراع بأمر الحـــرب مـــضطلعا
لا مترفًا إن رخاء العـــيش ســـاعده ولا إذا عـــض مكـــروه بـــه خـــشعًا
لقد بذلت لكم نـــصحي بـــلا دخـــل فاســـتيقظوا إن خيـــر العلـــم مانفعـــا

هذه اللغة الناطقة بالتحذير والتخويف تبدو جلية حتى لتغطي أبيات القصيدة من بدئها حتى ختامها ، ومبعث التحذير والتخويف هنا أن الشاعر أحس الخطر يتهدد قومه ، وهو بعيد عنهم يرى ويسمع ما يحاك لهم وما يدبر للقضاء عليهم فسخر خطابه الشعري لتخويف قومه مركزً على :

١. غفلة قومه وانشغالهم ، وهم يرون نذر الحرب تبدو أمام أعينهم :

مالي أراكم نيامًـــا فـــي بلهنيـــة وقد ترون شهاب الحرب قد ســـطعا
في كل يوم يسنون الحراب لكـــم لا يهجعون إذا ماغـــا فـــل هجعـــا

٢. النصيحة والإرشاد بإعداد الجياد وآلات الحرب من سيوف وقسيٍّ وسهام استعدادًا للعدو حتى لا يباغتهم وهم في غفلة .

صونوا جيادكم واجلوا ســـيوفكم وجـــددوا للقـــسيّ النبـــل والـــشرعا

٣. التعجب من أمر قومه : فهم نيام متفرقون والأعداء يقظون يدبرون ويخططون لقتالهم :

يالهف نفسي إن كانت أمـــوركم شتى وأحكم أمـــر النـــاس فاجتمعـــا

٤. التحذير من مغبة الغفلة ، و أنهم إذا هزموا أمام العدو فلن ينفعهم مال ولا زرع :

هيهات لا مال من زرع ولا إبل يرجى لغابركم إن أنفكم جدعا
لا تثمروا المال للأعداء إنهم إن يظفروا يحتووكم والتلا دمعا

٥. الفزع والاستعداد وتولية من يصلح أمرهم في مواجهة العدو :

قوموا قيامًا على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفًا إن رخاء العين ساعده ولا إذا عصه مكروه به خشعًا

ثم تأمل الخطاب الشعري الذي يدل على بصيرة نافذة يدرك صاحبها – بواسع خبرته –أهمية القيادة ودورها في السلم والحرب فيضع شروط القائد الذي يصلح ولم يبخل بها عن قومه الغافلين .

- ولم تكن أساليب الشاعر ولغته الداعم الوحيد لصفة التحذير والتخويف بل دعمها تلك القافية المتوجة بحرف الرويّ (العين المشبعة بالألف دلالة على التأهب والفزع الذي يرجوه شاعرنا ويأمل أن ينتقل إلى قلوب قومه التي أترفها العيش فكانت في بلهنية .
- إن الخطاب الشعري المحمل بلهجة التخويف في قصيدة إياد يطلعنا في جلاء مدى الانتماء والولاء ورابطة الدم ، كما يطلعنا على دور الشعر وما للكلمة من سحر وفعالية في معترك الحياة ، وكيف يكون القصيد سلاحًا وأداة للنصر على الأعداء .

(٥) وبين الألم والحسرة :

والتي تنطبق بها في وضوح أبيات أبي البقاء الرندي القائل :

لكل شيء إذا ماتم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن؟ ... و أين منهم أكاليل ويتجان؟

وأين ما شاده شداد في إرم ... وأين ماساسه في الفرس ساسان؟

وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان ؟

أتى على الكل أمر لا يرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى خيال الطيف وسنان

دار الزمان على (دارا) وقاتله ... و أم كسرى فما آواه إيوان

دهى الجزيرة أمر لاعزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان

فاسأل (بلنسية) ما شأن (مرسية) ... وأين (شاطبة) أم أين (جيانُ) ؟

و أين (قرطبة) دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان ؟

وأين (حمص) وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

تبكى الحنيفة البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثى وهي عيدان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... ومالها من طول الدهر نسيان

يا راكبين عناق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
ورا تعين وراء البحر في دعه لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى و أسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم و أنتم يا عباد الله إخوان ؟
ألا نفوس أبـاة لها همم أما على الخير أنصار وأعوان ؟
يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حياري لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لها لك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح و أبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يبكي القلب من كمد إن كان في القلب إسلام و إيمان

خطاب شعري مفعم بالأسى والحسرة ، فهو يذكر بمجد غابر، وعز داثر، وجاه عريق، ومجد عتيق وحضارة عظيمة وفردوس ضاع من بين يدي العرب في الأندلس.

لقد عاش الشاعر المحنة ، وكابد آلامها و أحزانها ، واكتوى بنارها فكانت أساليب الاستفهام خير معبر له للتعبير عما فقد وضاع ، و أن الدنيا لا تبقى على حال ، يقول:

أين الملوك ذوو التيجان من يمن؟ و أين منهم أكاليل وتيجان؟
وأين ما شاده شداد في إرم وأين عاد وشداد وقحطان ؟
وأين ما حازه قارون من ذهب وأين ماساسه في الفرس ساسان؟
أتى على الكل أمر لا يرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلَك كما حكى خيال الطيف وسنان

وكذلك استخدام النداء والاستفهام حينا و أساليب التقرير أحيانًا ليرسم بقلمه فجيعة فقد الأندلس .

ويستمر في استخدام صيغ الاستفهام للتعبير عن الكارثة التي حلت بالأندلس ، حتى ضاع ما فيها حضارة ومجد ، ولا يخفى ما تتركه أساليب الاستفهام من تحسر و ألم ، يقول :

فاسأل (بلنسية) ما شأن (مرسية) وأين (شاطبة) أم أين (جيانُ) ؟
و أين (قرطبة) دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان ؟

ويستعيد الشاعر في خطابه ذكريات الأمس القريب الذي ولى ، ينادي الفرسان المقاتلين فوق ظهور الخيل يسألهم خبرًا عن الفردوس الذي ضاع :

يا راكبين عناق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
ورا تعين وراء البحر في دعه لهم بأوكانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟

وإمعانًا في الألم والحسرة يذكر صورًا متعددة لحال الناس في ظل الكارثة وانهزام العرب في الأندلس، وضياع الممالك وسقوط المدن واحدة تلو الأخرى :

يقول :

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حياري لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لها لك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح و أبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يبكي القلب من كمد إن كان في القلب إسلام و إيمان

(٦) **وبين التهكم والسخرية،**

والتي تحملها أبيات (نزار قباني لله في قصيدته) مذكرات عاشق دمشقي إذ يقول :

يا شام أين هما عينا معاوية و أين من زاحموا بالمنكب الشهبا
فلا خيول بني حمدان راقصة زهوًا ولا المتنبي مالىء حلبا
وقبر خالد في حمص نلامسه فيرجف القبر من زواره غضبا
يا رب حي رخام القبر مسكنه ورب ميت على أقدامه انتصبا
يا بن الوليد ألا سيف تؤجره فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا
دمشق ياكنز أحلامي ومروحتي أشكو العروبة أم أشكولك العربا

أدمت سياط حزيران ظهورهم فأدمنوها وباسوا كف من ضربا
وطالعوا كتب التاريخ واقتنعوا متى البنادق كانت تسكن الكتبا؟
سقوا فلسطين أحلامًا ملونة و أطعموها سخيف القول والخطبا
عاشوا على هامش الأحداث ما انتفضوا للأرض منهوبة والعرض مغتصبا
وخلفوا القدس فوق الوحل عارية تبيح عزة نهديها لمن رغبا
هل من فلسطين مكتوب يطمئنني عمن كتبت إليه وهو ما كتبا
وعن بساتين ليمون وعن حلم يزداد عنى ابتعادًا كلما اقتربا
أيا فلسطين من يهديك زنبقة ومن يعيد لك البيت الذي خربا
شردت فوق رصيف الدمع باحثة عن الحنان ولكن ما وجدت أبا
تلفتي تجدينا في مباذلنا من يعبد الجنس أو من يعبد الذهبا
فواحد أعمت النعمى بصيرته فللخنى والغواني كل ماوهبا
وواحد في بحار النفط مغتسل قد ضاق بالخيش زيا فارتدى القصبا
وواحد نرجسي في سريرته وواحد من دم الأحرار قد شربا
إن كان من زيفوا التاريخ هم نسبي على العصور فإني أرفض النسبا

في هذه القصيدة النزارية الساخرة سخرية هادفة موجهة ، مبعثها أساليب النداء والاستفهام في قوله : يا شام ، وقوله : أين هما عينا معاوية ؟ وتكرار الاستفهام في قوله : وأين من زحموا بالمنكب الشهبا ؟ "

فلا الشام تضم معاوية ولا الأبطال الذين طاولوا السماء بقاماتهم العالية ، ولا خيول بني حمدان تحتفل بانتصاراتها العظيمة ، حتى الشهداء الأبطال الذين ووريت أجسادهم يتحرقون غيظًا من أحفادهم الذين توانوا وضعفوا ؛ يقول :

يا شام أيــن همــا عينــا معاويــة و أين من زاحموا بالمنكب الشهبا
فلا خيول بنــي حمــدان راقــصة زهوًا ولا المتنبي مــالىء حلبــا
وقبر خالد فــي حمــص نلامــسه فيرجف القبر من زواره غــضبا
يا بن الوليــد ألا ســيف تــؤجره فكل أسيافنا قد أصــبحت خــشبا

وفي خطاب نزار الشعري يمعن في السخرية إذ يبرز العرب وقد أدمنوا الهزائم، واكتفوا بقراءة التاريخ دون أخذ الحيطة والحذر والعبرة، واكتفوا بالقول مجردًا، وبالخطب الرنانة يلوكونها بألسنتهم:

أدمت سياط حزيــران ظهــورهم فأدمنوها وباسوا كف من ضربا
وطالعوا كتب التــاريخ واقتنعــوا متى البنادق كانت تسكن الكتبا ؟
عاشوا على هامش الأحداث ما انتفــضوا للأرض منهوبة والعــرض مغتــصبا

إن الشاعر في هذا الخطاب الشعري الممعن في السخرية جزء من أمته وهو نبضها الحقيقي، وأن له رسالة تبرز خلال الأحداث لعلها تكون ناقوسًا ينبه من غفلة ويوقظ من سبات.

(٧) وبين التحدي والصمود :

ويبرز ذلك قول التهامي في قصيدة (عناد الشعر)

ومهمــا نالــت الأحــداث منــي ســأبقي فــي مفاوزهــا أغنــي
وتسكن نارها في عمق روحــي فيصدر نورها الوضــاء عنــي
فإن حطت علــى الــدنيا بليــل ترد ظــلام هــذا الليــل عينــي
جبلت علــى مقارعــة الليــالي فبــين ظلامهــا ثــأر وبينــي
شــققت ســواده شــقا فــولى ولم يدم الظــلام ولــم يرعنــي

ألفت المر حتى صار حلوًا ودست الشوك حتى فرَّ مني
وخضت الموج والإعصار حولي يهز الكون من ركن لركني
مددت شراعي المكدود فيه فلم يجد الشراع ولم يعني
ولم يصنع لي المجداف شيئًا وما المجداف في الإعصار يغني
ولم تدع الحياة سوى يميني و إيماني و أشواقي وفني
فصار الموج في كفي رخاء يدور كما أريد ولم يخني
وحسبي أنني لم أبغ شيئًا سوى رد العداوة والتجني
وثار الهول حولي في عناد فلم يرهب خطاي ولم يعقني
وكنت إذا تعددت البلايا ألوذ إلى فؤادي المطمئن
أرد الهول عن دربي بكف لتفرغ كفي الأخرى وتبني

هنا تبدو نبرة الصمود والتحدي في خطاب الشاعر، فهو ثابت مهما كانت قوة الأحداث وضراوتها، و أنه مجبول على قتال الشدائد والصمود في مواجهتها، ويستند الخطاب الشعري في ذلك على الأسلوب الخبري ليثبت حقيقة ما يقول ويؤكده بقوله :

ومهما نالت الأحداث مني سأبقي في مفاوزها أغني
وتسكن نارها في عمق روحي فيصدر نورها الوضاء عني
فإن حطت على الدنيا بليل ترد ظلام هذا الليل عيني
جبلت على مقارعة الليالي فبين ظلامها ثأر وبيني

ويبرز الخطاب الشعري – أيضًا – أن الشاعر قد ألف الصعاب واعتاد الشدائد فلم يعد يعبأ بالدنيا حلوها أومرها :

ألفت المر حتى صار حلوًا ودست الشوك حتى فرَّ مني
وخضت الموج والإعصار حولي يهز الكون من ركن لركنِ

كما يبرز الخطاب الشعري السبب وراء صمود الشاعر وهو: قلبه المطمئن وهمته العالية التي تجعله صلبًا يتحدى الصعاب مهما كانت ضراوتها:

وكنت إذا تعددت البلايا ألوذ إلى فؤادي المطمئن
أرد الهول عن دربي بكف لتفرغ كفي الأخرى وتبني

(٨) **وبين شدة الوجد واللهفة:**

كما في قول إبراهيم ناجي:

ولكم صاح بي البأس انتزعها فيرد القدر الساخر دعها
ولي الويل إذا لبيتها ولي الويل إذا لم أتبعها
قد حنت رأسي ولو كل القوى تشترى عزة نفسي لم أبعها

ويقول:

هذه الدنيا قلوب جمدت خبت الشعلة والجمر توارى
لا تسل واذكر عذاب المصطلي وهو يذكيه فلا يقبس نارا
و أراني قلب من أعبده ساخرًا من مدمعي سخر العدا
صدئت روحك في غيهبها وكذا الأرواح يعلوها الصدى

ويقول:

أنت قد صيرت أمرى عجبا كثرت حولي أطيار الربى
فإذا قلت لقبلي ساعة قم نغرد لسوى ليلى أبي

ويقول:

يا جنان الخلد قدمت اعتذارى إذ يطوف الشوق قلبى وديارى

أيها الآمـــر فـــي ملـــك الهـــوى اعف عن لهفة روحي و أواري
اشـــتهي ضـــمك حتـــى اشـــتفي فكـــأني ظـــامىء آخـــذ ثـــاري
غير أني كلما امتدت يدي لعنـــاق خفـــــت أن تؤذيـــــك نـــــاري

هذه الأبيات القليلة المأخوذة من عدة قصائد يجمعها خيط واحد هو شدة الوجد واللهفة التي يحياها المحب ، إذ يغير الشوق حياته من حال لحال . فهو في الأبيات الأولى حائر متردد بين ترك من يحب أو السير في فلكه ، ويصل الخطاب الشعري إلى قمة اللهفة عندما يبرز أن المحبوبة قد أحنت رأسه وهو القوى الذي أعيا وأتعب غيره :

قد حنت رأسي ولو كـــل القـــوى تشترى عزة نفـــسي لـــم أبعهـــا

وفي أبيـات المجموعـة الثانيـة يبـدو الخطـاب الـشعري في صـورة مناجـاة هامسة تبرز عذاب المحب ، وسخرية المحبوبة وعدم مبالاتها :

و أرانـــي قلـــب مـــن أعبـــده ساخرًا من مدمعي سخر العـــدا

ثم يحيل هذا الصدود وهذا التجاهل إلى أن روح من يحب قد صدئت كما تصدأ الأشياء في دنيا الواقع :

صدئت روحـــك فـــي غيهبهـــا وكذا الأرواح يعلوهـــا الـــصدى

ويبرز البيتـان في المجموعـة الثالثـة مـدى تعلـق الـشاعر بمـن يحـب ، بـرغم تجاهله فهو لا يرى عنها بديلاً :

أنت قد صـــيرت أمـــرى عجبـــا كثرت حـــولي أطيـــار الربـــى
فـــإذا قلـــت لقبلـــي ســـاعة قم نغـــرد لـــسوى ليلـــى أبـــي

أما في أبيات المجموعة الأخيرة فيصل الخطاب الشعري منتهاه من العرامة وشدة اللهفة ، فالمحب هو الآمر المتحكم والشاعر هو الظامىء المتلهف الذي يشتهي ضم من يحب ، لكنه يخاف عليه نار الشوق المحرقة :

اشتهي ضمك حتى اشتفي فكأني ظامىء آخذ ثاري

غير أني كلما امتدت يدي لعناق خفت أن تؤذيك ناري

هذه النماذج التي طوفنا معها في دنيا الخطاب الشعري الذي تنوع بين القوة والتحدي والسخرية واللين والرقة والتعالى والتفاخر والتحذير والتخويف والألم والحسرة وشدة الوجد واللهفة ، كلها أنماط تطلعنا على عدة حقائق أبرزها : أن طبيعة الخطاب الشعري تختلف من موضوع لآخر بحسب محتواه ، والشاعر تحت وطأة الموضوع يختار لخطابه ما يراه من ألفاظ و أساليب ، يشكلها وفق إحساسه ، ويرتب ظهورها إلى دنيا الواقع تبعًا لما يعتمل في نفسه ويدور في خاطره ولعل القائل : " الأسلوب هو الرجل " قصد به أن ما يصدر عن الشاعر من أقوال يعبر عن مكنون فؤاده وما في نفسه ، ولذا قال أحد الحكماء لرجل لا يعرفه : " تكلم حتى أراك " .

فإذا كان الموضوع يفرض نفسه فإن اللغة تتشكل معه بدورها ، ولك أن تتبين ذلك من خلال قول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

اللغة هنا فخمة رنانة تبرز لهجة التعالي والتفاخر فتوالت الكلمتان : الخيل والليل وهما تنتهيان بحرف واحد مما يضفي على الأسلوب فخامة واستعلاء ثم أتبع ذلك بياء المتكلم في قوله (تعرفني) وهو أمر لابد منه حتى يتم التفاخر ، ثم

توالي العطف بالواو في قوله : " والسيف والرمح والقرطاس والقلم " ليبين للسامع مدى ما يمتلك من أمور تقتضي منه التعالي والتفاخر.

وعلى الطرف الآخر، انظر كيف يتخذ الخطاب هذه اللغة اللينة الرقيقة المستعطفة في العباس بن الأحنف :

كتبت كتابي مـــا أقـــيم حروفـــه لشدة إعـــوالي وطـــول نحيبـــي

أخط وأمحو ما خططـــت بعبـــرة تسح على القرطاس سح غروب

فهو يناجي في همس وكأنه يستعطف من يحب حتى يرق لحاله لذلك أبرزت لغة الخطاب حالة الشاعر بنفي الإدراك عنه ساعة تحرير الكتاب لمحبوبته ، وذلك لما تملكه من نحيب وبكاء ، وإمعانًا في الاستعطاف لجأ إلى الطباق في قوله : (أخط و أمحو) ليبين هول ما أصابه إذ يغلبه البكاء فيكتب ثم يمحو ما كتب ، كما لجأ العباس بن الأحنف إلى المبالغة – المقبوله – في تشبيه دموعه الغزيرة بسح الغروب ، فضلا عن المحسن البديعي الذي أبرز نفس الشاعر المتعبة وكان التشبيه بذلك مطية الشاعر ووسيلته في إبراز خطابه الشعري اللين الرقيق .

وشتان بين الخطابين في قول المتنبي والعباس من الأحنف .

وكما أن موضوع القصيدة يفرض على الشاعر لغة الخطاب و أسلوبه فلكل شاعر بصمته التي يعرف بها والتي تميز صوته الشعري عن غيره والدليل على ذلك ما تغص به كتب الأدب ومصادره ، فنحن على مر العصور الأدبية نستطيع – وبسهولة– أن ننسب ما نقرأ من أبيات لقائلها ، ذلك لما كان للشاعر من سمت معروف ، و أدوات تميزه ، فالمتنبي معروف بحكمته التي تسرى في ثنايا قصائده ، و أبو تمام معروف بما يرصع من محسنات وصور، والبحترى بما يتميز به من

سلاسة أسلوبية حتى حق للنقاد أن يطلقوا على شعره : (سلاسل الذهب) لاتصاله ببعضه في سلاسة ويسر، كما وسم أبو العلاء المعري بالفلسفة حتى سماه مؤرخو الأدب ونقاده الشاعر الفيلسوف . . وهكذا ندرك أن الشعراء قد وضعوا بصماتهم المميزة التي ألفها الناس واعتادوها ، فكانت السبيل الذي به نهتدي إلى الأبيات بمجرد سماعها ونسبتها إلى صاحبها .